الباحثون عن الحقيقة

د. صالح عسكر ـ جامعة باتنة.

تمهيد:

هذه الدراسة تتناول موضوعا مهما بالدرجة الأولى للمتخصصين في الدعوة، وهي تعرض لفئة من الناس أسميناها الباحثين عن الحقيقة، وهي تحاول أن تتغلغل إلى عقول أمثال هؤلاء لتفهم ما الذي يدور فيها؟ ولتبحث عن دوافع تقف وراء بحثهم عن شيء يتجاوز عقول كثير من الناس لا يجدون هم اطمئنانا إلا ببلوغه؟

وقد نشأت فكرة هذه الدراسة من بحوث سابقة وجدنا فيها اقتناعا واعترافا من كثير من المختصين في العلوم المادية بمطابقة ما جاء به النبي ﷺ لكثير من الحقائق التي لم يتوصل إليها العلم إلا في عصور متأخرة ودلالة ذلك على أن ذلك وحي من عند الله، ومع ذلك فإن أكثر هؤلاء لم يخط الخطوة التي كانت تبدو في نظرنا خطوة طبيعية؛ وهي اعتناق الإسلام. وقد طرح ذلك فرضية تقول بأن الاقتناع العقلي غير الاعتناق القلبي، ونتيجة لذلك؛ كان من الضروري أن ندرس عينات من الذين اعتنقوا الإسلام لفهم دوافعهم، وللوصول إلى بعض خصائص هذا الدين التي جعلته في تمدد واشتداد رغم سوء عرضه وضعف أهله.

من هم الباحثون عن الحقيقة؟ الباحث عن الحقيقة شخص يفترض أن يكون ـ بمقاييس كثير من الناس ـ محظوظا؛ لأنه يملك أسباب العيش المريح من المال والمنصب... غير أن هذا الشخص مستعد للتفريط في جميع ذلك بحثا عن شيء أهم بالنسبة إليه، ويبدو أن هذا الشيء يغيب عن إدراك كثير من الناس، ولعل مرجع ذلك إلا أنه شيء نفسي شعوري وليس شيئا يرى، ولا يمكن بيانه ووصفه.

ومصطلح (الباحث عن الحقيقة) اشتهر كعلم على سلمان الفارسي ﷺ، الذي كان واحدا من أشهر صحابة النبي ﷺ، والذي يمكن أن نقول -بلغة عصرنا- أنه هجر الحياة الهنيئة للولد المدلل لتاجر فارسي شديد الغنى، وسافر قاطعا مسافات شاسعة وعابرا لبلدان عديدة ومتحملا لأوزار ثقيلة بحثا عن الدين الحق.

وبدأ من سلمان وإلى يومنا هذا، بل إلى قيام الساعة، تتابعت جحافل الباحثين عن الحقيقة على اختلاف درجاتهم وأقدارهم في ذلك، وهذه الدراسة تسعى لفهم ما يدفع هذه الفئة من الناس لأن تهجر حياتها المريحة لتستبدلها بحياة جديدة ومجهولة؟

نماذج عن الباحثين عن الحقيقة:

سنتناول تحت هذا الباب نموذجين أحدهما قديم والثاني معاصر(1)، وسنحاول أن نستنتج منهما جوابا عن السؤال الذي طرحناه.

1- سلمان الفارسي ﷺ: إن من يتناول مثل هذا الموضوع، لن يستطيع أن يتجاوز القصة العجيبة لصاحب رسول الله ﷺ، وسابق الفرس إلى الحق؛ سلمان الفارسي ﷺ. وهذا

المثل التاريخي يصور بشكل نموذجي، طبيعة هذه الفئة من الناس. كان سلمان رجلا من أهل أصبهان، وكان أبوه تاجرا غنيا يحبه حبا شديدا حتى حبسه كالجارية، اجتهد في صغره في المجوسية حتى صار قاطن النار، ثم مر بكنيسة يوما فعرف النصرانية فأعجبته فاعتنقها ثم فر إلى أرض الشام فجاور فيها أساقفة من الصالحين ثم دله آخرهم حين حضرته الموت على صفة النبي ﷺ والأرض التي يهاجر إليها، فلما سأل عرف أنها أرض العرب، فاتفق مع بعض تجار العرب على أن يدفع إليهم مالا ليحملوه إليها حتى إذا قدموا وادي القرى غدروا به فباعوه عبدا لرجل من اليهود ثم اشتراه رجل من بني قريظة فقدم به المدينة ثم قضى الله أن يلقى فيها رسول الله ﷺ بعد أن قدمها مهاجرا من مكة ليصل إلى مطلبه بعد رحلة دامت سنوات طويلة[2].

2 - أبو يحيى جيرالد فريديريك دايركس(Jerald F.Dirks (Abu Yahya: هذا النموذج معاصر، وهو من أجود النماذج في هذا المقام، وقد تعمدنا اختياره لثلاثة أسباب:

أ- أن (جيرالد دايركس)[3] يفترض أن يملك عقلية علمية وأن يفكر وفق منهج علمي وعقلي صحيح، لأنه من المعدودين ضمن ذوي العلم.

ب - أنه كان من قبل من رجال الكنيسة.

جـ- وأنه محلل نفسي، مما يجعله من أقدر الناس بحكم تخصصه على بيان وترجمة ما يحدث بداخل عقلية من أسميناه (الباحث عن الحقيقة) ونفسيته.

وحتى نجتنب السرد القصصي المطول، نسجل بجانب القصة ملاحظات رأينا أنها تنطبق على عينة كبيرة من أمثال دايركس من المعتنقين للإسلام، ومنها:

الملاحظة الأولى: سلامة فطرة التدين المؤيدة بتنشئة دينية رعتها وحافظت عليها ولم تطمسها.

يقول **دايركس**: إنه نشأ في بلدة صغيرة، وقد كان بالبلدة كنيسة قديمة من فروع الكنيسة البروتستانتية، وكانت هذه الكنيسة تشكل مركزا للحياة الاجتماعية لأهل البلدة، ولذلك فقد كان له منذ طفولته المبكرة علاقة قوية بالمسيحية؛ كان يذهب كل أحد مع أفراد عائلته إلى الكنيسة لأداء الصلاة الأسبوعية، وكان للكنيسة قسمان دراسيان تقدم فيهما دروس الأحد لصغار الأطفال، وبضعة أقسام أخرى للأطفال الأكبر سنا، وكان هو من الدارسين في هذه الأقسام مع أطفال آخرين. وفي شهر جوان من كل عام، كان هناك دورة تدريسية للإنجيل تدوم أسبوعين، وكان هو من المداومين على حضورها طيلة السنوات الثمانية الأولى لدراسته.

خلال المرحلة الثانوية بدأت تتركز اهتماماته حول القسيسية كشيء يجذبه نحوه، وهكذا أصبح نشطا في جمعيات الشبيبة البروتستانتية، وعمل بصفة متقطعة في مكتب الناحية، كما أصبح هو الخطيب الدوري في التجمع السنوي للشبيبة، وكانت خطبه تجلب اهتماما كبيرا لفئات واسعة، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح يساعد في تقديم خطب في

بعض الكنائس والحضانات وجمعيات الشبيبة والنساء المختلفة، حيث بدأت خطبه تجلب حضورا قياسيا.

يقول: «في سن السابعة عشر، حين بدأت أول سنة في جامعة (هارفارد)، كان قراري بدخول القسيسية قد اشتد، وخلال تلك السنة سجلت في مقياس من سداسيين في مقارنة الأديان، وكان يدرس هذا المقياس (ويلفريد كانتويل سميث Wilfred Cantwell Smith) والذي كان تخصصه الإسلام. خلال دراستي لهذا المقياس، لم أكن أهتم بالإسلام أكثر من اهتمامي بالديانات الأخرى كالهندوسية والبوذية، غير أنها كانت في النهاية تبدو أكثر إبهاما وغرابة بالنسبة إلي، وبالمقابل كان الإسلام يبدو مشابها نوعا ما لمسيحيتي، غير أنني لم أركز على الإسلام بالقدر الذي كان يفترض أن أفعله، ومع ذلك فإنني أتذكر أني قد كتبت عرضا عن مفهوم الوحي في القرآن. ولما كان المقياس من المقاييس الأكاديمية الأساسية والمطالب بها، فقد اقتنيت مكتبة صغيرة فيها ما يقارب الست كتب حول الإسلام، كانت جميعها مؤلفة من قبل مؤلفين غير مسلمين، وجميعها ستفيدني خمسا وعشرين سنة بعد ذلك. كما اقتنيت أيضا ترجمتين مختلفتين لمعاني القرآن إلى اللغة الإنجليزية وقمت بقراءتهما في ذلك الوقت».

ويضيف: «في هذا الخريف "هارفارد Harvard" أعطتني لقب (Holli scholar) بمعنى أني كنت واحدا من أفضل طلاب كلية الإلهيات في الجامعة، وفي الصيف الفاصل بين السنة الأولى والثانية بالجامعة، عملت كقس شباني في كنيسة ميتودية اتحادية متوسطة الكبر، وفي السنة الموالية حصلت على رخصة الخطابة من الكنيسة الميتودية المتحدة. وبعد حصولي على الشهادة المتوجة لدراسات التدرج من جامعة (هارفارد) سنة 1971م، سجلت في كلية الإلهيات بنفس الجامعة وحصلت على شهادة (الماستر Master of divinity degree) سنة 1974م، وكنت قبلها قد سجلت ضمن أمر الكنيسة الميتودية المتحدة وحصلت على تكوين مساعد بالإضافة إلى التكوين بـ (هارفارد). وخلال فترة تربصي أكملت برنامجا من سنتين كمتعاون بمستشفى (بيتر بانت بريغهام Peter Bent Brigham Hospital) بـ (بوستن Boston). وبعد حصولي على الشهادة قضيت الصيف كقس باثنين من الكنائس البروتستانتية الاتحادية ببادية (كنساس) حيث وصل عدد الحضور إلى أرقام لم تر في هذه الكنائس من قبل»(4).

الملاحظة الثانية: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لحكمة يعلمها(5) قد وضع في طريق هؤلاء مسلمين بسطاء كانوا سببا في تعريفهم بالإسلام:

خلال الفترة السابقة لم تكن لجيرالد دايركس علاقة تذكر بالإسلام والمسلمين، ثم شاء الله أن تبدأ علاقته بالمسلمين المقيمين بالولايات المتحدة بمحض الصدفة حين كان منشغلا هو وزوجته ببحث حول تاريخ الحصان العربي، وكان الداعي إلى ذلك حاجتهما إلى من يؤمن لهما ترجمة لبعض الوثائق العربية، فدفعهما هذا البحث إلى الاتصال بعرب أمريكيين و الذين كانوا مسلمين.

يقول: «كان أول لقاء لنا مع (جمال) في صيف سنة 1991. بعد حديث تلفزيوني تمهيدي، زارنا جمال في البيت وعرض علينا أن يقوم ببعض الترجمة لنا، وأن يوجهنا ويعيننا فيما يتعلق بتاريخ الحصان العربي في الشرق الأوسط. وقبل أن ينصرف جمال في هذه الأمسية، سألنا: هل يستطيع أن يستعمل حمام بيتنا (ليغسل) قبل أن يؤدي صلاته الراتبة، واستعار منا جزءا من جريدة ليستعملها كسجادة ليؤدي صلاته قبل أن ينصرف. أما نحن، فكنا مضطرين ـ ولكن ممتنين ـ أن يكون هناك ما يمكن أن نقدمه له أكثر من مجرد جريدة. ومن غير أن نشعر في تلك اللحظة، كان جمال يقوم بصورة جميلة من صور الدعوة؛ فلم يقم بأي نوع من التعليق حول كوننا غير مسلمين، ولم يحاول أن يدعونا إلى شيء من معتقداته الدينية، بل لقد عرض لنا بتصرفه مثلا صارخا لمن يريد أن يتلقى الدرس»(6).

بعد نحو ستة عشر شهرا، يقول دايركس أن اتصالاته بجمال تزايدت تدريجيا حتى صارت بمعدل لقاء واحد كل أسبوع أو أسبوعين، وخلال هذه اللقاءات يؤكد أن جمال لم يقم بدعوته إلى الإسلام ولم يسأله أبدا عن اعتقاداته وقناعاته، ولم يقترح عليه **بالكلام** أن يصير مسلما، غير أنه ـ كما يقول ـ بدأ يتعلم الكثير: «أولا: كان هناك سلوك جمال وهو يؤدي صلواته الراتبة، ثانيا: كان هناك سلوك جمال وهو يسير حياته اليومية وفق أخلاق عالية في تعاملاته الاقتصادية كما في حياته الاجتماعية، ثالثا: كان هناك سلوك جمال في تعامله مع ولديه. وبالنسبة لزوجتي، عرضت زوجة جمال قدوة مماثلة. رابعا: ودائما في سياق مساعدتي على فهم تاريخ الحصان العربي في الشرق الأوسط، بدأ جمال يشاركني الحديث حول: 1- قصص من التاريخ العربي والإسلامي. 2- أحاديث النبي ﷺ. 3- آيات من القرآن الكريم ومعناها المعاصر. وفي النهاية أصبحت كل زيارة تتضمن نحوا من ثلاثين دقيقة من الحديث حول جانب من جوانب الإسلام، ولكن دائما في الإطار العلمي لمساعدتي على فهم تاريخ الحصان العربي، لم يكن يقال لي: (هكذا هي الأشياء)، كان يقال لي فقط: (هذا ما يعتقده المسلم). وبما أنني لم أتعرض لخطب دعوية، وبما أن جمال لم يتدخل في معتقداتي الشخصية، فإنني لم أكن محتاجا لأن أبذل جهدا في تبرير وضعيتي، كان الأمر كله يتم كتمرين علمي، لا كدعاية».

ثم كانت المرحلة القادمة أن جمال بدأ يربط دايركس وزوجته بالعائلات العربية المسلمة المقيمة في الولايات المتحدة، وقد لاحظ دايركس ـ كما يقول ـ أن هذه العائلات كانت تعيش في حياتها وفق خطة أخلاقية أرفع مما عليه المجتمع الأمريكي الذي كانت جزءا منه، وقد جعله يقول في نفسه: «ربما كان هناك شيء له علاقة بتعاليم الإسلام لم أعه خلال دراستي»؟

الملاحظة الثالثة: لقد وجد هؤلاء في العقيدة الإسلامية حلا للتناقض الحاصل في نفوسهم من التنازع بين فطرة تدينية متجذرة في نفوسهم وتعاليم كنسية مصادمة للعقل ناشئة عن تحريف الدين الحق، وممارسات كنسية ناشئة عن نفاق وعدم اقتناع:

لم تكد تمضي سنتان منذ أول لقاء لدايركس مع جمال حتى أصبح يسأل نفسه بصورة جدية جملة من الأسئلة حول: أين هو؟ وماذا يفعل؟ يقول: «هذه الأسئلة أوجدتها مجموعة من الاعتبارات:

1- بعد ستة عشر شهرا من الدرس، صارت حياتنا الاجتماعية متمحورة بصفة متزايدة حول مكونات الجالية المسلمة المحلية، وحوالي شهر ديسمبر، صار ما يقارب 75% من حياتنا الاجتماعية يقضى مع العرب والمسلمين.

2- بسبب دراستي الدينية وتخصصي، كنت أعلم بأي صفة سيئة تم تحريف الإنجيل (وأعلم متى؟ وأين؟ ولماذا وقع ذلك؟)، لم أكن أؤمن بربوبية ثلاثية (التثليث)، ولا بشيء أكثر من بنوة **مجازية** للمسيح عليه السلام. باختصار: بما أنني كنت أؤمن بالرب، فقد كنت موحدا كسائر أصدقائي المسلمين.

3- كانت قيمي الخاصة وذوقي الأخلاقي متوافقين مع أصدقائي المسلمين أكثر مما كانا عليه مع المجتمع (المسيحي) من حولي، فقد كان لدي ـ في النهاية ـ المثل غير التصادمي لجمال ووائل وخالد كصورة لذلك. باختصار: حنيني إلى المجتمع الذي تربيت فيه وجد إشباعه عند الجالية المسلمة. لقد أصبح المجتمع الأمريكي مفلسا أخلاقيا، ولكن لا يبدو أن ذلك هو حال هذا الجزء من الجالية المسلمة التي احتككت بها؛ علاقات الزوجية كانت مستقرة، والأزواج بعضهم مرتبط ببعض، والأمانة والتكامل والمسؤولية والقيم العائلية كانت شديدة وقوية. لقد حاولت أنا وزوجتي أن نعيش حياتنا بهذه الكيفية، ولكن خلال سنوات عديدة شعرت أننا نفعل ذلك في فراغ أخلاقي، أما المجتمع المكون من الجالية المسلمة فقد كان يبدو مختلفا ..»[7].

الملاحظة الرابعة: أن الله ـ عز وجل ـ قد هيأ لهم بعض الظروف والأسباب التي ذللت أمامهم آخر العقبات، وانتزعت الحواجز من بين أيديهم:

يقول دايركس: «.. وبلغ تساؤلي ذروته حين وصلت في النهاية إلى أن أسأل نفسي: ما الذي يفصلني عن معتقدات أصدقائي المسلمين؟ أعتقد أنه كان يفترض أن أناقش الموضوع مع جمال أو خالد، لكنني لم أكن مستعدا لدخول هذه المرحلة، فإنني لم أناقش معهم من قبل معتقداتي، وأعتقد أنني لم أرد أن أدخل هذا النوع من النقاش في صداقتنا».

ولأجل أن يجد إجابات عن هذه التساؤلات طفق يقرأ؛ قرأ نحوا من ستة كتب عن الإسلام مؤلفة من قبل باحثين غربيين، تتضمن سيرة للنبي ﷺ، ثم شرع في قراءة ترجمتين مختلفتين للقرآن الكريم للغة الإنجليزية، ولم يحدث ـ كما يقول ـ أصدقاءه المسلمين عن (رحلته في البحث عن نفسه)، ولم يشر إلى أي نوع من الكتب كان يقرأ، ولا لماذا كان يقرؤها؟ غير أنه كان يناقش في مرات عديدة مع زوجته ما كان يقرأ.

يقول: «وفي الأسبوع الأخير من ديسمبر سنة 1992م، كنت مضطرا لأن أعترف لنفسي بأنني لا أجد أي تناقض بين معتقداتي الدينية والمبادئ العامة للإسلام، وأنني كنت مستعدا لأن أصدق بأن محمدا ﷺ كان نبيا من أولئك الذين كانوا يتكلمون لأجل وتحت الوحي

الإلهي، ولم أجد صعوبة في أن أؤكد بأنه ليس هناك إله غير الرب (الله) سبحانه وتعالى، إلا أنني بقيت مترددا في اتخاذ أي قرار. كنت مستعدا لأن أعترف لنفسي بأنني أملك من الأمور المشتركة مع معتقدات المسلمين ـ كما أفهمها ـ أكثر مما أملك من الأمور المشتركة مع المعتقدات القديمة للكنيسة النظامية، كما كنت أعلم أيضا أنني يمكن أن أؤكد بسهولة من خلال دراستي أغلب ما ذكره القرآن عن المسيحية، الإنجيل، وعيسى عليه السلام، غير أنني ترددت.. وأكثر من ذلك؛ بررت ترددي عبر التأكيد لنفسي أنني في الحقيقة لا أعلم كل صغيرة وكبيرة من تفاصيل الإسلام، وأن موافقتي كانت مرتبطة بالمبادئ العامة. وعليه فقد واصلت القراءة وإعادة القراءة».

لقد أصبح في هذا الوقت يواجه ميراثا ثقيلا لما يفوق الأربعين سنة، فـ«لمدة ثلاث وأربعين سنة كانت هويتي الدينية معرفة بصورة واضحة كمسيحي، أيا يكن ما أضفت إليها من أوصاف عبر السنوات، فإضافة وصف جديد للهوية الشخصية لم يكن مهمة سهلة، كان جزءا لا يتجزأ لكيفية تعريفي لوجودي. وبالنظر إلى الخلف، فمن الواضح أن ترددي كان بسبب الأمن الذي كنت أشعر به من تعريفي لنفسي بالوصف الديني المألوف بكوني مسيحيا، حتى ولو كان مسيحيا يعتقد ما يعتقده المسلم».

إن التغيير المفاجئ لتعريف الإنسان لنفسه ليس شيئا سهلا، لأن الإنسان يشعر بالأمن في المألوف فـ: «واحد من معاني الهوية، ومن هو الإنسان؟ هو التأكيد القوي لوضعية في الفضاء، وخلال ممارستي العملية كنت مدعوا في بعض الأحيان إلى معالجة بعض الإضافات الفاسدة، ابتداء من التدخين، إلى الخمر، إلى الإدمان على المخدرات، وكطبيب نفسي، كنت أعلم أن علي التغلب على تلك الإضافة حتى يتكون التمهيد للامتناع، كان هذا هو الجزء السهل من العلاج، كما قال (مارك توين) مرة: (التوقف عن التدخين سهل، لقد قمت به مئات المرات). ولكني كنت أعلم أيضا أن مفتاح المحافظة على هذا الامتناع عبر مدة طويلة، كان التغلب على الإضافات النفسية للمريض والتي غرست في المعنى القاعدي لهويته، بمعنى أنه حين كان يعرف نفسه كمدخن أو مدمن خمر.. فقد أصبحت العادات السلوكية جزءا لا يتجزأ من المعاني الأساسية لهوية المريض، من المعاني الأساسية لذاته. كان تغيير هذا المفهوم للهوية شيئا مصيريا في المحافظة على العلاج النفسي، وكان هذا هو الجزء الصعب من العلاج، فتغيير المعاني الأساسية للهوية هو الجزء الأصعب، إذ أن لا شعور الإنسان يميل نحو المألوف، والذي يبدو نفسيا أكثر راحة وأكثر أمنا من الجديد غير المألوف».

كان على دايركس أن يطبق علمه على نفسه الآن، فلم يعد الطبيب فقط، ولكن أصبح هو الطبيب والمريض معا، يقول: «وفقا لاعتبارات علمية، كانت لدي المعرفة، وكنت أوظفها بصفة يومية، ولكن، وبصورة عجيبة، لم أكن مستعدا لتطبيقها على نفسي، وعلى المخرج لترددي حول هويتي الدينية». ونظرا لذلك، أصبح يواجه صراعا داخليا، وكان من أعراض هذا الصراع حاجته لأن يؤكد بأنه مسيحي. يقول: «أنا الآن في آخر شهر ديسمبر،

وكنت أنا وزوجتي نملأ استمارة جواز السفر، لنجعل مشروعنا الذي انتظرنا طويلا تنفيذه في الذهاب في جولة سياحية إلى الشرق الأوسط حقيقة، كان هناك سؤال على الاستمارة متعلق بالانتماء الديني، لم أفكر كثيرا، وبصورة آلية وقعت في القديم والمألوف حين كتبت (مسيحي)، كان سهلا، وكان مألوفا، وكان مريحا... غير أن هذه الراحة تعرضت لإزعاج قصير حين سألتني زوجتي: كيف أجبت عن السؤال المتعلق بالانتماء الديني على الاستمارة؟ فرددت في الحال: (مسيحي) ثم ضحكت بسوت عال.

واحدة من مساهمات (فرويد) في فهم حقيقة الإنسانية، كانت ملاحظته أن الضحك في الغالب تنفيس عن ضغط نفسي. وكائنا ما كان (فرويد) مخطئا في جوانب من نظريته حول التطور النفسي والجنسي، فإن ملاحظاته عن الضحك كانت متطابقة مع الصحة. لقد ضحكت، فما هو هذا الضغط النفسي الذي احتجت إلى تنفيسه بواسطة الضحك، ثم قمت بسرعة بإعطاء تأكيد مختصر لزوجتي بأنني مسيحي ولست مسلما؟ والذي ردت عليه بأن أخبرتني بأدب بأنها كانت تسأل فقط: هل كتبت (مسيحي) أو (بروتستنت) أو (ميتوديست)؟

وفقا لقواعد عملية كنت أعلم أن الإنسان لا يدافع عن نفسه ضد تهم لم توجه إليه (ففي حصة العلاج النفسي إذا صرح المريض: «أنا لست غاضبا بسبب هذا» وأنا لم أفتح موضوع الغضب، فإنه من الواضح أن المريض يحس بالحاجة إلى الدفاع عن نفسه ضد تهم تصدر عن لاشعوره؛ باختصار: فقد كان غاضبا، ولكنه لا يريد أن يعترف بذلك ولا أن يتعامل معه)، فإذا لم تصدر التهمة عن زوجتي، فإن التهمة قد صدرت عن لاشعوري، لأنني كنت الشخص الآخر الوحيد الحاضر.

كنت منتبها إلى هذا، ولكنني بقيت مترددا. فالتعريف الديني الذي تم إلصاقه بمفهوم هويتي خلال ثلاث وأربعين سنة لم يكن ليخرج بسهولة».

ثم لم يمض وقت طويل حتى وجد نفسه يواجه وضعا مماثلا مرة أخرى: «كان ما يقارب الشهر قد مضى منذ السؤال الذي سألتني زوجتي، كنا في آخر جانفي 1993، وكنت قد أنهيت قراءة كل الكتب عن الإسلام للباحثين الغربيين، قرأتها كاملة، وأصبحت الترجمتان لمعاني القرآن على أدراج المكتبة [بمعنى أنه قد أتم قراءتهما]، وكنت منشغلا بقراءة الترجمة الثالثة، لعلي أجد في هذه الترجمة مبررات لـ .. كنت أتناول طعام الغداء ساعة قبل عملي الخاص في المطعم العربي المحلي الذي شرعت في التردد عليه. دخلت كالعادة، وجلست في طاولة صغيرة، وفتحت ترجمتي الثالثة لمعاني القرآن من حيث توقفت في المرة السابقة، كنت أعتقد أن علي أن أقوم ببعض القراءة خلال ساعة الغداء. بعد مدة انتبهت إلى أن (محمود) قائم أمام كتفي ينتظر طلبي، ألقى نظرة إلى ما كنت أقرأ ولكنه لم يقل شيئا، وبعد أن سجل طلبي عدت إلى القراءة.

وبعد لحظات قليلة، أحضرت (إيمان) زوجة محمود ـ مسلمة أمريكية تلبس الحجاب: خمار وجلباب ارتبط في ذهني بالمسلمات الإناث ـ [أحضرت] لي طلبي، وعلقت على كوني كنت أقرأ القرآن، ثم سألتني بأدب إن كنت مسلما؟

كانت الكلمة خارج فمي قبل أن أستطيع أن أهذبها بأي عرف اجتماعي أو أدبي: (لا!) هذه الكلمة الوحيدة قيلت بشدة، وبصورة أقوى من اللباقة. مع هذا انسحبت (إيمان) من طاولتي بأدب».

في هذه اللحظة، وبعد هذا الحادث، أحس بأنه في وضعية غير مريحة، فكان يقول في نفسه: «ما الذي يحدث لي؟ لقد أصبحت شديدا وربما عدوانيا، ماذا فعلت هذه المرأة لتواجه بمثل هذا التصرف من قبلي؟ لم يكن هذا أنا.. فحين أنظر إلى طفولتي [أجد أنني] ظللت أستعمل (سيدي) و(أمي) حين أتوجه إلى الرهبان والراهبات.. كان من الممكن أن أتجاهل ضحكي كتنفيس عن ضغط، ولكن لن أبدأ بتجاهل مثل هذا التصرف غير الواعي الصادر عني. في تلك اللحظة كنت قد انقطعت عن القراءة، وطوال فترة الغداء فكرت في المنحى الذي أخذته الأحداث، أكثر من ذلك؛ فكرت في شعور المذنب الذي أحسست به بسبب تصرفي، كنت أعلم أنه حين ستحضر لي إيمان الحساب في آخر الغداء، سأكون محتاجا لتقديم بعض الاعتذارات، حتى ولو لم يكن هناك سبب سوى أن قواعد الأدب تقتضي ذلك. أكثر من ذلك؛ كنت منشغلا حقيقة بحجم المقاومة التي واجهت بها سؤالها غير المضر، ما الذي حدث لي حتى رددت بهذه القوة على سؤال بسيط ومباشر؟ لماذا أوصلني سؤال بسيط إلى أن يبدر مني هذا التصرف؟

بعد ذلك، حين أحضرت لي إيمان الحساب، حمت حول الموضوع بالقول: «أخاف أنني كنت شديدا في الرد على سؤالك من قبل؛ فإن كنت تسألينني إن كنت أعتقد أنه ليس هناك إلا رب واحد فإن جوابي هو نعم، وإذا كنت تسألينني إن كنت أعتقد أن محمدا هو واحد من أنبياء هذا الرب فالجواب هو نعم "، فأجابتني بصورة جيدة جدا ومشجعة جدا: قد يستغرق الأمر بالنسبة لبعض الناس مدة أطول قليلا من الآخرين».

يقول دايركس: إنه حين يفكر الآن فيما كان يحدث له، يجد أنه كان يقوم بـ (لعبة نفسية): «ربما تفضل القارئون لهذا بتسجيل اللعبة النفسية التي كنت ألعبها مع نفسي من غير أن يضحكوا على (تمطّطي العقلي mental gymnastics)، وتصرفي». فلقد كان مستعدا لأن يتقبل جميع مبادئ الإسلام، ولكنه لم يكن مستعدا لتسمية نفسه مسلما، «إنني أعلم أنني بطريقتي الخاصة، مستعملا ألفاظي الخاصة، قد قمت ببساطة بالنطق بالشهادة (أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)، ومع ذلك، رغم أنني نطقت بالشهادة، ورغم أنني اعترفت بما قلت، بقيت ملتجأ إلى الوصف القديم والمألوف لهويتي الدينية، في النهاية؛ لم أقل أنا مسلم، كنت ببساطة مسيحيا، نعم مسيحيا غير نموذجي، مستعدا لأن يقول بأن هناك إله واحد، لا ألوهية ثلاثية، ومستعدا لأن يقول بأن محمدا من رسل هذا الإله، إذا كان هناك مسلم يريد أن يقبلني على أنني مسلم كان هذا شغله أو شغلها، أو وصفه أو وصفها للهوية الدينية، ولكنه لم يكن وصفي. اعتقدت أنني قد وجدت مخرجا لأزمة هويتي الدينية؛ كنت مسيحيا، يستطيع بتعقل أن يوضح أنه يتفق مع، ومستعد لأن يشهد شهادة الإسلام، صانعا

شرحي الملتوي، وموظفا الخطاب الإنجليزي للمحافظة على كل بوصة في حياته، للآخرين أن يصفوني بأي وصف شاؤوا، كان ذلك وصفهم وليس أنا».

وبالإضافة إلى هذا التناقض، فقد قرر هو وزوجته أن يصوما، كان ذلك حين كانا يقضيان عطلة من خمسة أسابيع بالشرق الأوسط، ووافق ذلك شهر رمضان، ولأنهما كانا دائما محاطين بمن يقودهما في رحلتهما السياحية من أفراد من عائلات أصدقائهما المسلمين الأمريكيين، و بغرض الأدب و المجاملة فقط صاما مثلهم، يقول: «وخلال هذا الوقت أيضا، بدأت أؤدي الصلوات اليومية الخمس للإسلام مع أصدقائي المسلمين الجدد من الشرق الأوسط، ففي النهاية، لم يكن في هذه الصلوات شيء لا أقبله». كان دايركس في هذا الوقت مسيحيا، يشهد بشهادة الإسلام، و يؤدي الصلوات الخمس ويصوم.

وقد انتهى في الأخير إلى الإقرار بأنه مسلم حين وقع في وضعية لم يكن ليجد فيها مخرجا عبر (لعبته الكلامية): «إننا الآن في وسط مدة رحلتنا، كنت أنا وصديق لا يتحدث اللغة الإنجليزية نسير في طريق ضيق من طرق واحد من الأحياء الفقيرة من العاصمة الأردنية عمان، وحين كنا نسير اقترب منا شخص كبير قادم من الجهة المعاكسة لسيرنا، فقال: السلام عليكم ومد يده لمصافحتنا، كنا نحن الثلاثة وحدنا في هذا المكان، أنا لا أتكلم اللغة العربية ولم يكن مرافقي ولا الرجل الغريب يتحدثان اللغة الإنجليزية، ناظرا إلي، سألني الرجل الغريب: مسلم»؟

في هذا الوقت بالذات، كنت واقعا في المصيدة بصورة كاملة، لم يكن هناك لعبة كلامية ألعبها، لأنني لا أستطيع أن أعبر إلا باللغة الإنجليزية، ولا يستطيعان أن يعبرا إلا بالعربية، لم يكن هناك مترجم ليخرجني من هذه الوضعية، و يعينني على الاختباء وراء (المنولوج) الذي أعددته بصورة جيدة باللغة الإنجليزية، لم أكن أستطيع أن أزعم أنني لم أفهم السؤال، لأنه كان من الواضح أنني قد فهمته، كان اختياري و فجأة، وبدون توقع، وبصورة غير مفهومة مختصرا في أمرين : كان علي أن أقول (نعم) أو (لا)، وكان الاختيار لي، وليس لي خيار غيره، كان علي أن أختار وأن أختار الآن : كان الأمر بهذه السهولة. الحمد لله، لقد أجبت (بنعم).

بقولي لهذه الكلمة، كل ألعاب الكلمات صارت خلفي، الألعاب النفسية المتعلقة بهويتي الدينية أيضا أصبحت خلفي، لم أعد مسيحيا غريبا وغير نموذجي، أصبحت ـ حمدا لله ـ مسلما، زوجتي ذات الثلاث والثلاثين سنة أصبحت أيضا مسلمة منذ تلك اللحظة».

بعد تجربة حياته الجديدة يقول دايركس: «هناك تضحيات يجب تقديمها إذا أصبحت مسلما في أمريكا، كما أن هناك تضحيات يجب تقديمها إذا أصبحت مسلما في أي مكان، ولكن هذه التضحيات ربما كان الإحساس بها أكبر الآن في أمريكا، خاصة بالنسبة للأمريكيين المعتنقين للإسلام، بعض هذه التضحيات متوقع، وتتضمن تغيير الملبس والامتناع عن الخمر والخنزير والربا، وبعض هذه التضحيات أقل توقعا، مثلا: هناك عائلة أمريكية، كانت تربطنا بها صداقة، أعلمتنا أنهم لن تربطهم بنا بعد الآن علاقة، كما أنه لن

تربطهم علاقة بأي أحد (لا يتخذ المسيح منقذه الشخصي)، بالإضافة إلى ذلك، قلة من زملائي في العمل غيروا طريقة تعاملهم معي، وربما كان من الصدفة أو لم يكن أن انخفض متوسط عملي، وكان هناك في النهاية نحو من 30% من غير القادمين إلى العيادة، بعض هذه التضحيات الأقل توقعا كانت صعبة للتقبل، ومع ذلك فإن كل التضحيات كانت ثمنا قليلا يدفع في مقابل ما ننال.

بالنسبة للذين يقبلون على الإسلام ويهبون أنفسهم لله سبحانه وتعالى، ستكون هناك تضحيات يقدمونها طول الطريق، بعض هذه التضحيات متوقع بسهولة، بينما بعضها مفاجئ أكثر وغير متخيل، إننا لا ننكر وجود هذه التضحيات، ولا أريد أن أجعل هذه الكأس حلوة، ومع ذلك لا ترعبكم هذه التضحيات، ففي التحليل الأخير، هذه التضحيات ستكون أقل أهمية مما تعتقدون الآن، و ستجدون ـ إن شاء الله ـ هذه التضحيات ثمنا زهيدا في مقابل (الأمور الحسنة) التي تبحثون عنها».

عم يبحثون؟

كان سلمان غنيا ومحظوظا، وكانت (سيو واتسون SUE WATSON) أستاذة وراهبة ومربية كنسية، ورسولة (داعية) إنجيلية، كما كان (جيرالد دايركس). (يوسف إيستس) «YUSEF ESTES» وأبوه كان كلاهما رسولا (داعية) مسيحيا غنيا ومشهورا، وسافر الفرنسي المراهق (جون) «JEAN» (يونس) عبر أوروبا ثم تركيا ثم الخليج ثم مصر ثم إثيوبيا إلى أن وصل إلى اليمن ليفهم معنى الإسلام؟ ومن هم المسلمون؟.. فما الذي يدفع هؤلاء الناس إلى مثل هذا؟

1 ـ إن في نفس كل إنسان حاجة داخلية لعبادة الله، ومن غيرها لا يمكن لأي كان أن يشعر بالطمأنينة و السعادة، كما جاء في القرآن الكريم: **﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** (الروم:30).

2- كثير من أولئك، لم يستطع أن يقبل فكرة التثليث المسيحية، قال دايركس: «كانت هناك مفارقة عجيبة في أن الذين يفترض فيهم أن يكونوا الأحسن، والأكثر تفوقا، والأكثر ذكاء من الرسل الإنجيليين، كانوا يختارون لأفضل تكوين مقدم بكلية الإلهيات بـ (هارفارد)، المفارقة العجيبة، أنه إذا أعطي هذا التكوين، فإن الطالب معرض لكثير من الحقائق التاريخية التي لا يعرفها:

1- التكوين المبكر للتيار الأساسي للكنيسة وكيف تمت قولبته وفق اعتبارات جيو سياسية.

2- القراءة غير المألوفة للنصوص الإنجيلية، والتي كان كثير منها متناقضا مع أكثر ما يقرأ المسيحيون حين يتلون إنجيلهم، ومع ذلك فإن كثيرا من هذه المعلومات تدخل تدريجيا في ترجمات أحدث وأحسن.

3- تطور مفهوم تثليث الربوبية، وبنوة المسيح عليه السلام.

4- لا دينية كثير من الاعتبارات التي تقع خلف كثير من المعتقدات و المبادئ المسيحية.

5- الوجود المبكر لكثير من الكنائس والتيارات المسيحية التي لا تقبل مبدأ التثليث، ولا تقبل مبدأ ألوهية المسيح عليه السلام».

3- كثير منهم لم يتقبل الفساد الأخلاقي الذي هو نتاج لفقدان الوازع الديني في المجتمع. كتب دايركس : «على مر السنوات، صرت مهتما أكثر فأكثر بفقدان الوازع الديني في المجتمع الأمريكي بصفة واسعة. الوازع الديني هو الحياة، والتنفس الروحي والأخلاقي في الناس، ويجب ألا يلتبس بالرهبانية المرتبطة بالطقوس والعقائد الرسمية للطوائف النظامية أي الكنيسة. يبدو أن الثقافة الأمريكية فقدت بصورة متزايدة أخلاقها وحرصها على الوازع الديني. اثنين من كل ثلاثة ارتباطات زوجية تنتهي بالطلاق، والعنف بدأ يصبح بصورة متزايدة جزءا لا يتجزأ من مدارسنا و طرقاتنا، والمسؤولية الشخصية أصبحت في تناقص، الانضباط والتحكم الذاتي أصبح مغزوا بـ(إذا كنت تشعر بشعور حسن، افعله) كمبدأ، زعماء لكثير من الكنائس والمؤسسات أصبحوا غارقين في فضائح جنسية ومالية، والشعور يبرر التصرف. الثقافة الأمريكية في اتجاه أن تصير مفلسة أخلاقيا، وكنت أشعر بالوحدة (الغربة) الكاملة في صحوتي الدينية».

ورغم هذه الدوافع، فإن قبول الحق والتسليم له يظل صعبا، وهو شيء يتجاوز مجرد الاقتناع العقلي، فمثلا من بين نحو عشرين من العلماء الكبار الذائعين (مثل كيث.ل.مور Keith more مارشال جونسون Marshal Jhonson، سياويدا Seaweda، بالمر Balmer وآخرون..) الذين شهدوا بصدقة كون القرآن وحيا إلهيا وموافقته الكاملة لأحدث مكتشفات العلم، واحد منهم فقط اعتنق الإسلام[8]. ويضاف من المعيقات إلى ذلك.

1- الصورة المشوهة التي تعرضها وسائل الإعلام و الكنائس و البرامج التعليمية عن الإسلام، تقول الراهبة السابقة (سيو واتسون) (خديجة): «.. كان سؤالي الأول مرتكزا حول ألوهية الله، من هو هذا (الله) الذي يعبده المسلمون؟ لقد درس لنا كمسيحيين أنه إله آخر، إله زائف..»، وتقول أيضا: «الذي درس لنا كمسيحيين أنه إله آخر، إله زائف"، و تقول أيضا: "الذي درس لنا عن الإسلام أنه ديانة إبليسية شيطانية». ومثلها كان القس الأمريكي السابق (يوسف إيستاس) يعتقد لعشرات السنين أن المسلمين يعبدون (علبة في الصحراء) أي الكعبة.

2- العرض السيئ الذي يقدمه كثير من المسلمين عن الإسلام، الذين يظهرون بتصرفهم صورة مشوهة عن الإسلام، يقول الفرنسي «LE NEVEU»: (كثير من المسلمين الذين هاجروا إلى فرنسا قدموا لكسب المال، قدموا من أجل أمور شخصية وليس لتعليمنا الإسلام، وكان أغلبهم أميين ولا يعرفون الكثير عن الإسلام).

3- صعوبة تغيير الإنسان لوصفه لنفسه، فعلى سبيل المثال يصف لنا دايركس ما كان يحدث في نفسه: «كنت مسيحيا ـ أو هكذا قلت ـ بعد كل شيء، لقد ولدت في عائلة

مسيحية، وحصلت على تربية مسيحية، وتتلمذت في مدارس الأحد منذ كنت صبيا، وتدرجت في دراسة مرموقة، وكنت رسولا إنجيليا في كنيسة بروتستانتية تتبعها طائفة كبيرة».

4- كثير منهم وصل إلى وضعية اجتماعية واقتصادية جيدة، ولم يكن من السهل التنازل عنها، ولقد كان دايركس في وضعية جيدة ليحدثنا عن ذلك، يقول: «إذا نظر إلي من الخارج، فقد كنت رسولا إنجيليا صغيرا، وواعدا، حصل على تكوين جيد، له تأثير واسع في صلاة الأحد صباحا، وكان ناجحا خلال طريقه الكنسي. ولكن، إذا نظر إلى من الداخل، كنت في معركة مع نفسي لأحافظ على توازني الشخصي في مواجهة واجباتي الكنسية، هذه المعركة لم يكن ليزيلها مكتشفات بعض الدعاة الإنجيليين (televangelists) الساعين عبثا للمحافظة على التزام أخلاقي جنسي شخصي. كذلك كانت معركتي مختلفة عن معركة أولئك القساوسة الحاليين الذين يحتلون العناوين العريضة للصحف بسبب الصدى الذي أحدثته اعتداءاتهم الجنسية على الأطفال، ولكن معركتي قد تكون هي المعركة التي يواجهها أفضل أعضاء الكنيسة. وعليه فليس عجيبا أن أمثال هؤلاء المتفوقين لا ينهون الدراسة ليصعدوا (منابر) الكنائس، حيث يطلب منهم أن ينشروا في الناس ما يعلمون أنه ليس صحيحا، ولكن ليصلوا إلى الوظائف المرموقة. كان الأمر كذلك بالنسبة إلي، فحين تحصلت على (الماستار) و(الدكتوراه) في العلوم النفسية، واصلت تسمية نفسي مسيحيا، لأنه كان رقما ضروريا للهوية الشخصية، ولأنني كنت قبل كل شيء قسا مسجلا في الكنيسة، حتى ولو كنت أقضي كل وقتي عاملا كمحلل نفسي، ومهما اعتنى تكويني بمعتقدي، وكيفما كنت أنظر إلى التثليث وألوهية المسيح عليه السلام. بولس يؤكد دائما أن الرهبان أقل حظا في الاعتقاد بهذا وبالمعتقدات الأخرى للكنيسة من الأتباع الآخرين، خاصة مع رهبان أكثر حظا في فهم تطور مفهوم مصطلحات (كابن الرب)، في حين يفهمها الأتباع بأمية. وعليه أصبحت (مسيحي عيد الميلاد وعيد بعثة المسيح)، مترددا على الكنيسة بصفة غير منتظمة، ضاغطا على أسناني وعاضا على لساني وأنا أستمع إلى خطب تعرض ما أعلم أنه ليس كذلك.

الهوامش:

---

1) قد اقتصرنا في هذا المقال على نموذجين لضيق المقام، وقد وفق الله عز وجل فجمعنا مجموعة من النماذج المعاصرة انتقينا منها في المرحلة الأولى قصصا لمجموعة من رجال الكنيسة السابقين ممن اعتنقوا الإسلام أسميناها (قساوسة ورهبان يعتنقون الإسلام)، ونسأل الله عز وجل أن ييسر الانتهاء من تبييضها وإخراجها.

(2) انظر القصة بطولها في سير أعلام النبلاء للذهبي ج1، ص506 وما بعدها.

(3) اعتنق (جيرالد دايركس) الإسلام في أواخر القرن العشرين الميلادي، وقد كان من قبل قسا تحصل على شهادة (الماستر Master) في الإلهيات من جامعة (هارفارد Harvard) سنة 1975م، ثم شهادة الدكتوراه في علم النفس الكلينكي clinical psychology من جامعة (دانفر Denver)، وقد نشر قصة إسلامه سنة 2002م. انظر تفصيل قصة إسلامه على الموقع الإلكتروني www.the truereligion.org

(4) كذلك كان (يوسف إيستاس) راهبا وابن راهب، وبرع (أبو أحمد الفاروق) حتى كان من الرهبان المتفوقين ذائعي الصيت. انظر مجموعة مقالات (الرهبان السابقون الذين اعتنقوا الإسلام) ضمن الموقع السابق www.the truereligion.org

(5) قد تكون طهارة وصدقا علمه في قلوب هؤلاء.

(6) يؤكد (دايركس) تأكيدا متكررا على مسألة مهمة، وهي عدم استعمال الطريقة المباشرة في الدعوة، لأنها تضع من توجه له في وضع المتهم مما قد يدفعه للمعاندة لأنها تشعره بالنقص، وتضع عليه ضغطا زائدا قد يحول بينه وبين الإقرار بالحق.

(7) أما الراهب الأمريكي السابق أبو أحمد الفاروق فقد كان أكثر إفصاحا، كتب تحت عنوان (مرحبا بكم في العالم الحقيقي للكنيسة): «.. لقد اكتشفت الآن بأن هناك صفقة كبيرة من الحسد الراسخ في السلم السلطوي الكنسي، تغيرت الأشياء عما كنت ألفته، النساء يرتدين ملابس أعتقد أنها مخجلة، والناس يلبسون ملابس تجلب الانتباه، غالبا من الجنس المخالف. اكتشفت منذ قليل ما يلعبه المال والمنصب في نشاط الكنيسة، كانت هناك كنائس تستغيث، ودعونا لعقد لقاءات لنعينهم في جمع المال لهم، كان يقال لي: إذا لم يكن للكنيسة عدد معين من الأعضاء، لم يكن علي أن أضيع الوقت في الوعظ هناك، لأنني لن أحصل على مقابل مالي كبير، فأوضحت أنني لست هناك من أجل المال و أنني سأقوم بالوعظ حتى لو كان هناك شخص واحد فقط حاضرا... وفعلت ذلك بحرية، فسبب ذلك توترا وانشغالا، فبدأت أسأل أولئك الذين كنت أظن أن لديهم اليقين، لأجد أنهم كانوا يضعون ذلك قناعا، لقد علمت أن المال و القوة و المنصب كانت أهم من تدريس الحق حول الإنجيل، كدارس للإنجيل علمت جيدا أن هناك أخطاء، تناقضات، ومختلقات، اعتقدت أن عموم الناس يجب أن يعرض لهم الحق حول الإنجيل، وكانت فكرة عرض مثل هذه الأمور على الناس يفترض نسبتها إلى الشيطان، غير أنني بدأت أسأل بصورة علنية أساتذتي خلال حصص الإنجيل، والتي لم يجب عنها منهم أحد، لا أحد يمكن أن يوضح كيف يفترض أن يكون المسيح هو الرب، وكيف يفترض- في نفس الوقت- أن يكون الأب و الابن والروح القدس مجتمعة في واحد، كثير من الوعاظ سلموا في النهاية بأنهم لا يستطيعون فهم هذا، ولكن المطلوب منا فقط هو أن نؤمن به. حالات الخيانة و الفاحشة لم تتعرض للعقاب، بعض الرهبان انغمسوا في المخدرات ودمروا حياتهم وحياة عائلاتهم، زعماء بعض الكنائس وجدوا يمارسون سوأة قوم لوط، كان هناك دائما رهبان مذنبون بالوقوع في الفاحشة مع بنات بعض الأفراد الذين هم أتباع للكنيسة. كل هذا إذا أضفنا إليه العجز عن تلقي الإجابة على ما كنت أعتقد أنها أسئلة مشروعة كان كافيا لجعلي أبحث عن التغيير، وقد جاء هذا التغيير حين قبلت عملا في المملكة العربية السعودية..».

(8) هو البروفيسور التايلاندي (تاجاتات تاجسون)، وقد اعتنق الكندي (كيث مور) الإسلام منذ نحو سنتين بعد أن ظل يعترف بصدق القرآن و مطابقته لأحدث مكتشفات العلم لأكثر من عشرين سنة.